الفوتوقراطيّة (مقال لمجلّة Effetto Arte)

الصيف.
الوقت الذي نهجر فيه مسكننا إلى مكانٍ آخر، أيّ مكان.
والفنّان يسافر أيضًا، بين سائر الهاربين، ويراقب النزوح ما بعد الذرّيّ.
في الأزقّة الإيطاليّة الجميلة كلّ شيء موقعٌ تصوير: رجالٌ ونساء يصوّرون بعضهم بعضًا ويتّخذون أوضاعًا بقوّة الصياح؛ والصور المنتَجة هكذا تنطلق من الهواتف لتبلغ أجهزة أناسٍ آخرين، منهمكين هم أيضًا، على الأرجح، في تخليد أقاربهم أمام مناظر غريبة.
ولو أمكن تتبّع هذه الحركة من التذكارات البصريّة لاكتُشف أنّنا حاضرون مصادفةً في صور عطلات كثيرين غيرنا، وأنّ صورنا تُستعمل لوصف عطلاتٍ متخيَّلة لموظّفي مراكز الاتّصال.
من جبال الألب إلى الأهرام تعدي النوبةُ اللحظيّة كلّ أحد: علينا أن نقدّم البرهان القاطع على أنّنا كنّا حقًّا في هذا المكان اليوم؛ على الجميع أن يعلموا أنّنا نتمتّع بالحياة، اليوم.
نسدّ ذاكراتنا الرقميّة، ونملأ أقراصنا الصلبة بصور سعادتنا الدنيويّة!
ومع أنّ من المؤكّد أنّ كلّ شيء قد صُوِّر مرّةً على الأقلّ، فنحن واثقون أنّه لم يُصوَّر بأيدينا نحن، وهذا يكفينا.
نوثّق للأجيال، وللتاريخ، ولذاكرةٍ رقميّةٍ مقبلة.
وتنشأ فضاءات مشاركةٍ افتراضيّة نروي فيها حياتنا في العطلة بالصور: مآثرنا، وفتوحاتنا، ونظرتنا إلى عالمٍ في وضع التوقّف؛ إنّنا نبيع صورتنا المتخيَّلة عن أنفسنا.
نسعى إلى عرضها على أكبر عددٍ ممكن، ونشارك، ونروّج لصور عطلتنا كأنّها منتجات، ونسحر الغرباء لنجعلهم أتباعًا لنا: من أحبّتي فليتبعني.
سعادتي، ومتعتي، ومرحي: أبيعها بثمن لحظةٍ من وقتك، تلك التي تحتاجها لتقول إنّها أعجبتك، وإنّك تقدّرها، وإنّك تودّ أن تعرفني.
وماذا يبقى من هذه الحركة الهائلة من المعلومات البصريّة الرديئة الذوق؟
لا شيء.
نحن أنفسنا نمحو أكثر اللقطات التي بدت لنا رائعة: في واحدةٍ يظهر أنّنا سمنّا، وفي أخرى رفعت ابنة الأخ إصبعَي القرنَين، وفي هذه مرّ فنّانٌ أحمق أمام الشمس الغاربة.
ولن يصل إلى شبكاتنا الاجتماعيّة إلّا جزءٌ ضئيل، حيث سيبقى إلى أبد الآبدين غير قابلٍ للمحو، آمين.
وأكثر من ربع ساعة الشهرة، إنّها حياةٌ بأكملها تُنفَق في وصف ما نودّ أن نكونه، وكيف نودّ أن نعيش، وكيف نودّ أن يرانا الآخرون.
في ما مضى كان بالإمكان تنغيصُ حياة الأصدقاء والأقارب بعرض عشرين علبة شرائح؛ وأكثرهم جرأةً كان قد أنتج في العطلة شريط فيديو بصيغة VHS، بتعليقٍ صوتيّ يقرؤه الدليل السياحيّ؛ أمّا اليوم فالتصوير الفوتوغرافيّ والفيديو الوثائقيّ مجّانيّان، كالديمقراطيّة.
الجميع يستطيعون أن يصوّروا ويفلّموا وينتخبوا ويؤسّسوا أحزابًا سياسيّة، وهم يفعلون ذلك فعلًا، بلا خجل، بصرف النظر عن ثقافتهم أو كفاءتهم.
والفنّان المراقب، إذ يحلّل الوضع تحليلًا عميقًا، يدرك أنّ ثمّة أربعة حلولٍ فقط للتمتّع بمنظرٍ أو زيارة أثرٍ في هذه الحقبة:
أ) البحث عن صورة المنظر أو الأثر على الإنترنت.

ب) أن ننهض في الخامسة صباحًا — وثمّة من يفعل، لكن ليس الفنّانين، فهم أشدّ كسلًا.
ج) أن نذهب إلى المقهى لقراءة كتاب خيالٍ علميّ جيّد.
د) أن نذهب للعيش في كوريا الشماليّة.
وبينما نتأمّل في ما ينبغي فعله، تلتقط فتاةٌ صورةً لصديقةٍ تصوّر نفسها بنفسها، وتقرع الأجراس بلا انقطاع؛ اليوم مات فنٌّ آخر، ولحق المصوّرون بالرسّامين في جنّة العنيدين البدعاء عديمي النفع في الزمن الغابر.
هل ستأتي عذراء شابّة لتعيد التفكير من الصفر في فكرة التصوير ذاتها؟
هل سيدمّر مطرٌ شمسيّ مباركٌ العالمَ الرقميّ فيعيد للفنّان المصوّر كرامته؟
يمكننا ببساطة أن نطمئنّ إلى يقينٍ واحد: أنّ الذاكرة الرقميّة التي نحفظ عليها صورنا لن تصل سليمةً إلى علماء آثار سنة 4000، فيُحرَم المؤرّخون من وسم عصرنا بأنّه أكثر العصور إثارةً للشفقة.
في المدرسة نُرغَم على ابتلاع قراءاتٍ موجعة ورؤًى شاذّة لعصورٍ مدفونة، وذلك فقط بسبب خلود الورق والبردي؛ أمّا عصرنا فينتج كمّيّاتٍ غير متناسبة من المعلومات العديمة الفائدة، التي تدمّر نفسها بنفسها في
فعلٍ لاواعٍ من الإيكولوجيا العميقة.

Luca Motolese · Siracusa 2017

motolese.com — النصّ الأصليّ بالإيطاليّة